وقفية الأمير غازي بن محمد للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الموسوعة الصغيرة
٧٣

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب
تصدرها دار الحاحظ للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

الدماغ البشري

د. طارق ابراهيم حمدي

السعر ٥٠ فلسا دار الحرية للطباعة - بغداد

التزامن
بين الحروب الصليبية وألف ليلة وليلة

عبد الغني الملاح

This file was downloaded from QuranicThought.com

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QURANIC THOUGHT

٦٧

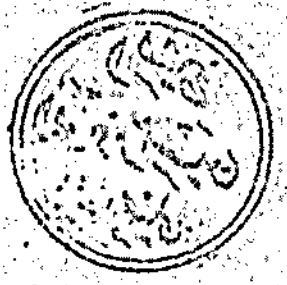

This file was downloaded from QuranicThought.com

التزامن

التزامن بين الحروب الصليبية وألف ليلة وليلة

عبدالغني الملاح

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

التزامن

استعيرت هذه الكلمة (التزامن)(١) من النفسانيين لاستعمالها اكثر من مرة في هذا البحث، وان كان علماء النفس قد ارادوا بها تطابق الاحداث التي تقع في وقت واحد وتزامنها بالنسبة لوقوعها فاني اريد بها العلاقات الفكرية المترابطة بين الموروث التاريخي : معلوم الزمان والمكان وبين ما دار حوله من موروثات ادبية او تحليلية او اسطورية حتى لو انتجتها ازمان متباعدة عن تاريخ الحدث الاساس ولكنها تعتبر متزامنة طالما تستمد منه افكارها . اذ ان ذكريات الاحداث لا تورث بحد ذاتها ولكن الانسان يرث امكانية احياء خبرات الاجيال الماضية(٢) . ومثل هذا الاحياء هو الاساس للبناء الكلي للمكتسبات الموروثة . غير ان الملاحظات العابرة تعبر عن هذه الحالة بكلمة (توارد خواطر) واحيانا تقسو تلك الملاحظات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

فتعبر عن محاولات احياء الموروثات بسرقات الخلف عن السلف . ولكن المنطق التاريخي يرى في الحدث رايا اخر ، فيصفه بالمجزا او المركب او المشوه او المحرف او المدسوس ؛ ان كان ذلك في الرواية او التسجيل او الحكاية او الخرافة ، واحيانا يراه براقا في الطريفة او النكتة . وهذا الاتجاه لا يخرج عن حاجات الانسان الى (الانتماء والتعالي والارتباط بالجذر التاريخي والهوية والاطار التوجيهي)(٢) وهذه الحاجات الضرورية تجعله يقرر بحذر ان كان التاريخ علما ام لا(٤) . لانه في احسن الحالات يكون اجزاء مشتتة من الحاجات الكلية لمعرفة الحدث المعين . والشيء الذي يمكننا ان نستند اليه لاعتبار التاريخ علما قائما بذاته هو تحديد الزمن الذي وقع فيه الحدث المطلوب تاريخه لان الحدث الواحد لا يمكن ان يقع مرتين او يحدث في محلين مختلفين ، فتحديد الزمان والمكان هو العلم وحده ؛ واما تاثير الحدث ؛واما اهمية الحدث، واما اصالته واما اسبابه ونتائجه فتلكامورنسبيةيجبان نتردد كثيرافي قبولها مجردا

عن المحاكمة العقلية . لانها تحمل في طياتها الرغبة والمعرفة ممزوجتين بنسب مختلفة ؛ مما يجعل الباحث اما متحيزا واما مجتهدا ؛ وكلاهما يدور حول الحدث بوجهة نظر تختلف عن الاخرى ، بينما العلم الحقيقي لا يقر غير التطابق الكلي في تفسير الموضوع العلمي .

وقد انتبه ابن خلدون الى ذلك فقرر « هنالك نوعان من الحوادث تستحق الذكر ؛ اولهما الحوادث الجغرافية والاقتصادية ، وثانيهما الحوادث النفسية(٥) . وذكر الجغرافية والاقتصاد والحوادث النفسية في تفسير اقوال ابن خلدون يعزز القول بان الرغبة والمعرفة لهما تاثير متناقض في تفسير التاريخ وهما متمازجان بنسب مختلفة عند كل انسان على حدة .

ان كثيرا من الناس يعيشون حيارى في تفسير حدث معين ، لانهم لم يجدوا التزامن المناسب لتبديد حيرتهم ؛ وسرعان ما تتغلب الاخيلة على موضوعية الحدث فتكون هي المتنفسات الحقيقية لتبديد الحيرة . وهذا ما سنلمسه في الحروب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الصليبية كحدث حقيقي استمر مده فجزره قرنين من الزمان مابين (١٠٩٧ ــ ١٢٩١) ميلادية . وكيف تسربت بعض تفصيلاته الى الحكايات والجغرافية والاقتصاد والانفعالات النفسية باشكال شتى . والذي يقرأ كتاب الف ليلة وليلة يجد ثلاث حكايات ــ في الاقل ــ استوعبت ١٤٨ ليلة تقريبا(٦) تتطرق الى هذا الحدث تارةبالتصريح وطورا بالتلميح ، وهذه الحكايات هي :

١ ــ (حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية)

٢ ــ (حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية)

٣ ــ (حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان)

وليس بالصحيح ان نعامل كل حكاية معاملة خاصة ، مع قناعتنا ان كلا منها قد انشئت في زمان مغاير لزمان نشوء الحكاية الاخرى . لان مصدر الحكايات الثلاث حدث واحد هو ــ الحروب الصليبية ــ مما يحتم علينا دراسة البياناتنفسها المؤدية الى كل حكاية من ابعاد مختلفة ، دراسة

مستمرة قابلة للتعديل والمحاكمة العقلية . وبمثل هذه الدراسة نكتشف العلائق بين الموروث التاريخي وبين التفسيرات المتضاربة ، واحيانا المتناقضة لاحيائه في ذاكرة الناس . وفي كل الاحوال لاتخرج هذه التفسيرات عن كونها ، اما وجهة نظرفي الحدث الموروث واما حديث خرافة يدور حوله ، انتجته مخيلة الانسان المتاثر به او ببعض اجزائه مصاغة بشكل حكاية اسطورية . وهكذا يتوضح التزامن بين الحدث الواقع فعلا وبين الاخيلة المستمدة من ذلك الواقع . ولا تحتاج هذه الاخيلة الى التفرد والاصالة لكي تؤدي مفعولها بقدر ما تحتاج الى استمداد الغير للاصغاء والاقتناع بانها جزء من السمات الاجتماعية العامة ، حتى لو كانت تلك السمات تتصف بالمعميات الباهتة التي تعجز عن التقرير النهائي في الادراك العقلي ، متاثرة بالمفهوم العام للبيئة المدهوشة من تفاعل الحدث مع محيطه الغامض سلوكا . فلا تجد تفسيرا لذلك التفاعل غير الاصغاء اعتباطا الى كل ما يتعلق بذلك الحدث . ومتى تضافرت القدرات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الانسانية على تفسير الاشياء ومسبباتها او تضافرت لادراك تغير العادات ودوافع تكوين عادات جديدة تكون ركيزة ضرورية للتعلم حتى لو كان هذا التعلم في مراحله الحرجة خاليا من كل متعة(٧) وكثيرا ما يتدخل الاشراق الصوفي في تطوير الحدث الى اسطورة او خرافة ؛ لان هذا النوع من التطوير يسبغ هالة قدسية على الحدث نفسه او يسبغ عليه اهمية خاصة تجعله في صف الكرامات ! كما سنلاحظ ذلك في ايمان الملك عمر النعمان بكرامات الجاسوسة عجوز الروم ام الملك الصليبي . ويجب الا تغيب عن معلوماتنا حكمة الاشراق الصوفي التي تبناها الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) فتحدث عن الحدس في المعرفة لا بالدليل والبرهان (وهذه المعرفة سماها الصوفيون : التجلي . واطلق عليها متصوفة المسيحية في الغرب: الذوق)(٨) وليس بمقدورنا ان نوفق بين الحدس والتجلي او الذوق وبين الدليل والبرهان الا عن سبيل السلوك الانساني المبني على قواعد العقل الباطن والتراكمات المكبوتة في اعماق نفسه ؛ التي

كثيرا ما تتفجر عن عبقريات تعامل الحدث بما يقربه الى المفهوم العام عند كل المستويات العقلية او الاجتماعية متمشيا مع الظروف المتغيرة على الدوام في مسار الحياة وتطورها . وان كان بعض الفلاسفة قد ظن (ان الحياة فيها عنصر لا يمكن حسابه وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب العقل البشري)(٩) فان هذا العنصر هو الذي يسبغ حيوية على الترابط بين الحدث وبين الحكاية التي تدور حول الحدث ، ويمنحه لذة . فتبقى لعبة الحواس ومتعتها كخصم لدود للعقل تشغل بال المفكرين قرونا طويلة فلا تجد حلا اجتماعيا لها مهما ازدادت المعرفة بالسلوك الانساني . اذ ان كثيرا من الحضارات التي كانت معقولة اصبحت غير معقولة وكثيرا من الافكار التي كانت مقبولة اصبحت غير مقبولة . اما متعة الحواس فقد بقيت هي الأساس في الوجود الانساني . وهذا ما يجعلنا نتساءل :اذا اصبحت متعة الحواس غير معقولة يوما ما هل سيبقى الانسان في قمة الظاهرة الحيانية ؟ ليس موضوعي الاجابة عن هذا التساؤل بعجلة ؛ طالما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

البحث يدور في العلائق الموجودة بين بعض حكايات الليالي وبين حدث الحروب الصليبية ؛ تلك العلائق التي تكونت من معاناة المجتمعات الاسلامية ومكبوتاتها خلال قرنين من الزمان وهي تتصادم مع مجتمعات صليبية كانت متأخرة عنها فكريا مما جعل هذه المعاناة تولد موروثا بشكل حكاية او خرافة ذات صلة وثيقة بما حدث فعلا . فكانت محورا لاهتمامات العامة ؛ وخصوصا اولئك الذين عجز السلطان عن اقناعهم بصحة ما حدث وعجز عن اعطائهم المبرر المعقول بصحة ما انتهى اليه ما حدث . وهذا العجز ناتج عن الهوة السحيقة بين دوافع السلطان في التعامل مع الحدث وبين معاناة الناس الحدث نفسه . وهي اسباب يتعذر عليها تقريب المعرفة من المنفعة فتسبب الاضطراب للسلوك الانساني المركب المتمثل بتصادم المنطق في تفسير الحدث مع الرغبة في تفسيره ؛ المستندة الى الانفعالات التي تعجز القدرات العقلية عن ايقاف جموحها ؛ فتتولد منها التناقضات الحتمية بين الدوافع والارادة .

الغزو الصليبي

عندما يضع المؤرخون سنة ١٠٩٧ م بداية للحروب الصليبية يريدون بذلك بداية المعارك العسكرية دون التطرق الى مقدمات هذا التاريخ والعوامل الحقيقية للغزو ؛ ويريدون بهذا التاريخ البداية دون التطرق ايضا الى تمزق الدولة العربية الى دويلات وامارات حتى اضحت معظم مدن الدولة العربية تحت سيطرة سلاطين من السلاجقة او المماليك . ومقابل هذا التمزق العربي كانت القوى في اوربا تتجمع من عناصر المتعبدين والناقمين والطامحين لغزو البلاد الاسلامية بحجة تحرير القدس . وقبل بدء الحملة الاولى بسنتين كان البابا (اوربانوس الثاني) قد القى خطبة في مدينة (مارمونت) الفرنسية ؛ تلك المدينة التي كان قد اجتازها عبدالرحمن الغافقي ــ يوما ما ــ حتى مدينة (بواتيه) وراح يحث المتعبدين من امثال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
AMIR GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

(بطرس الناسك) للانخراط في الجيش الزاحف (لانقاذ كنيسة القيامة من المسلمين الهراطقة !) . ولكنه لم يذكر في خطبته ابدا انه يريد منهم ان يستولوا على مناطق جديدة تربط اوربا بالشرق وتعزز تجارتها في موانىء جنوى والبندقية وبيزا ونصلها بالموانىء العربية عكا وبيروت وجبيل وصور والاسكندرية . فهذا الغرض الخفي الذي كان يملأ الرؤوس الكبيرة حققته حملة الصليبيين الذين ساروا بحماس شديد نحو القدس وهم مزيج عجيب من (ارباب الخيال والعبيد والنفوس المضطربة وعشاق المغامرات والمجرمين والخطاة الذين نشدوا الغفران بالحج الى الارض المقدسة)(١٠) ومن ورائهم يقف التجار ويقف البابا نفسه هم لمطامعهم ، وهو لتعزيز سلطته الكنسية .

وفي القسطنطينة تجمع ما يقارب المائة والخمسين الفا من هؤلاء الغزاة واخترقوا اسيا الصغرى (تركيا حاليا) ثم انقسموا عدة اقسام ، فاتجه صليبيو الدين الى مدينة الرها واحتلوها ، واصبح (بلدوين) ملكا عليها واتجه النورمنديون

الى انطاكيا وانتصروا على اميرها السلجوقي (ياغي سيان) ممثل (ملكشاه) حاكم بغداد وملكوا عليها قائدهم (بوهمند النورمندي) بينما زحف الكونت ريموند (الفرنسي) بجيوشه نحو الجنوب فاجتاح (معرة النعمان) وسهل نهر العاص ، وخلال فترة خاطفة تمكن (غودفرى) من احتلال القدس وفتك باهلها فتكا دمويا قدره ابن الاثير في كتابه الكامل في التاريخ بسبعين الف قتيل .

وتعاقبت المعارك في مد وجزر وتعاقبت الحملات حتى انتهت تلك الحروب بانتصار المسلمين سنة ١٢٩١ م .

وهذه الفترة الزمنية بمختلف حملاتها تدور حولها حكاية (عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان) ، وتشير بشكل ما الى بعض المعارك ، اذ قد صورت الحكاية ابطالها العرب آباء وابناء واحفادا للتعبير عن المدى الزمني الطويل . وابطالها الصليبي ملك القسطنطينية (فريدون) الذي قد يكون هو ملك المانيا فريدريك الذي زحف برا من القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الثالثة ، وملك قيسرية المستعمرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الصليبية التي احتلها الفرنج سنة ١١٠١ م بمساعدة اسطول جنوى ، وتسميه الحكاية الملك حردوب . وتقفز الحكاية الى الجيوش التي نزلت من بحر الروم (الابيض المتوسط) قادمة من فرنسا والبندقية وجنوى والنمسا ، وهذه الاسماء التي وردت في حكايات الليالي تذكرنا بالحملة الصليبية الثالثة التي تكونت بعد تحرير القدس على يدصلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٧ م مما اثار اوربا فدفعت بحملة جديدة ساهم فيها فرديك ملك المانيا وفيليب ملك فرنسا وريكاردوس (قلب الاسد) ملكانكلترا فحاصرت تلك الحملة (عكا) وجرت معارك كبيرة (فاستعان صلاح الدين الايوبي بالسباحين والحمام الزاجل لتأمين الصلات بينه وبين المدينة المحاصرة)(١١) .

واما(الحكواتي)في الليالي فقد اسبغ من خياله ما تحاج اليه عقول العامة ــ وهم اصحاب المصلحة في الحكاية ــ للاستجابات العاطفية ، فجعل للمراة دورا كبيرا في الاحداث مثل (صفية) بنت ملك القسطنطينية (فريدون) و (ابريزة) بنت ملك

قيسارية (حردوب) وشواهي ذات الدواهي ام الملك حردوب ، ومثل هذا الاتجاه في اخيلة الليالي يتفق مع اقتراح ريكاردوس قلب الاسد على صلاح الدين الايوبي ــ حسما للنزاع ــ ان يزوج اخته الاميرة الصليبية على الملك العادل اخ صلاح الدين وتقديم عكا والقدس هدية للعروسين ، كما يقضي الاعتراف بفروسية (ضوء المكان) بطل الحكاية في الليالي مع منح رتبة الفروسية الاوربية للملك الكامل ابن الملك العادل تقديرا لشجاعته ، وبهذا تكون الحكاية قد استفادت من الموروث التاريخي بما يتناسب مع امال الناس واحلامهم او بما يتناسب مع اراء الذين بلورت الحكاية انفعالاتهم تجاه الاحداث كما هم تصوروها او ارادوها ان تكون استنادا الى ما لديهم من المعرفة . وليس المهم ان يملك (الحكواتي)معرفة اكبر من معرفة العامة ، طالما ان تطلعات العامة لا تشدها غير الامور الباهرة حتى لو كانت على درجة قصوى من الاسطورة او الخرافة . فنلاحظ ان مؤلف حكاية (عمر النعمان وولديه) يدرك معرفته ابعاد وقائع الحروب الصليبية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وظروفها ويتخطاها بالاشارة الى التناقضات الاسلامية التي كانت بين امراء المسلمين (السلاجقة) انفسهم . فذكر حكاية (سليمان شاه) وجبال اصفهان ضمن الحكاية الاساس ، وهذا الاسم (سليمان شاه) اسم حقيقي لامير سلجوقي معروف له نشاطات سياسية معينة سبقت تحرير القدس من قبل صلاح الدين الايوبي باثنتين وثلاثين سنة ؛ واخبرنا عنه ابن الاثير في حوادث سنة (٥٥٥) للهجرة ١١٦٠ م فقال (سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة بعد ان كان سجينا فيها . فبعد ان توفي محمد بن السلطان محمود ارسل رجال سلطنته الى (اتابك قطب الدين) صاحب الموصل يطلبون منه ارسال سليمان شاه ليولوه السلطنةبعد ابيه . ولا يكتفي(الحكواتي)بالتطرق الى مثل هذه الحوادث بل يطعم حكايته بامور جانبيه اخرى مستفيدا من فترات الهدنة الطويلة بين المسلمين والصليبيين خلال قرنين من الزمان فيذكر انشغال احفاد عمر النعمان بالصيد واللهو فيعطي للتزامن قوة بين الموروث التاريخي والحكاية وخصوصا عندما

تقرا اخبار الصيد في مذكرات (اسامة بن منقذ) كما يطعم حكايته باحداث اجتماعية عامة بعضها ذات اتجاه جنسي مثل حكاية (عزيز وعزيزة) وبعضها ذات اتجاه اقتصادي مثل التجارة بالكتان في عكا وبعضها ذات اتجاه ديني مثل تعلم شواهي ذات الدواهي العلوم الاسلامية ومذاهبها . وهذه الاتجاهات مجتمعة تمثل الاطار الكامل للتفاعل الحضاري بين الشرق والغرب في ذلك العصر . غير ان هذا التفاعل سبب سيادة الاهواء والانفعالات على العقل عند كل من الطرفين . فمثلما نشات الحكاية عند العرب نشات قصص الفرسان عند الاوربيين وبواعث هذا النشوء هي الخوف والرجاء في آن واحد اذ (يتذبذب الشعور الديني بين الخوف والرجاء وبين الرهبة والرغبة) كما يقول سبينوزا فالحوادث الحسنة مثال طيب والحوادث السيئة تبعث على التطير والتشاؤم ، فيؤثر تاثيرا مباشرا في الحكاية واتجاهها ويشد المستمع اليها لانها تمثل خوفه او رجاءه في الحياة العامة او في تعامله اليومي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبالرغم من ان التقدم البشري سار في طريق القضاء على السلوك الانفعالي ، نحو العقلانية ، بقيت للحكاية قيمة كبرى كموروث يتزامن مع موروث واقعي هو التاريخ . ولكن الخرافة كانت افضل الوسائل لتسيير العامة)(١٢) والسيطرة على توجيهها كما فعل البابا (اوربانوس الثاني) في اعداد الحملة الصليبية الاولى . ومثل هذه العلائق بين الخرافة والواقع نلمسه بشكل اكثر وضوحا في حكاية (مريم الزنارية) التي حاربت وحدها جيشا كاملا من جيوش قومها الفرنج وانتصرت عليهم انتصارا لحبيبها (المسلم) علي علاءالدين . ولكي يعزز (الحكواتي) الشعور الديني عند سامعيه جعل الجارية الفرنجية تقول للصعيدي ان عثوره عليها بين الاسرى وتملكه لها بعشرة دنانير فقط دليل على (دينه الصحيح) ويمثل هذا توجيها متعمدا او غير مقصود لاستنباط السبل المؤثرة لتعزيز المفهوم والعادة السائدين في المسائل الداخلة ضمن نطاق العقل مع عدم خضوعها له الا قليلا . فهي كثيرا ما تتكلم باسم العقل ولكنها تجانبه في السلوك .

العلائق بين التاريخ والحكايات

بقليل من التامل والدراية نجد الشخصية العربية او الشخصية الاسلامية متمثلة بالجوانب السلوكية في حكايات الليالي . وقد ايدت كتب التراث التي تحدثت عن بعض جوانب الحروب الصليبية وجود النقائض السلوكية بين المجتمعين الاوربي (الصليبي) والعربي . فبينما تشير حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية الى ان (عادة نساء الافرنج ان يمشين في السوق بلا نقاب) وتشير الى زوجة فارس صليبي جاءت مختارة لتنام في دار عربي حتى الصباح لقاء مبلغ من المال نجد اسامة بن منقذ(١٣) يحدثنا في كتابه (الاعتبار) كشاهد عيان على التفسخ الجنسي الذي لمسه عند الافرنج ، اذ (ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته فليقاه رجل اخر ياخذ المراة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

ويعتزل بها)(١٤) ومثل هذا التزامن بين افكار المؤرخ وبين افكار (الحكواتي) يضع امامنا سبيلا اوسع في تفسير الانفعالات النفسية ضمن مجتمعات مختلفة السلوك ، ولكنها متفاعلة مع بعضها بشدة من جراء الاحتكاك الفكري بين مجتمعين مختلفي الهدف ، بحيث تصبح العلاقات الانسانية مثيرة للاهتمام بغض النظر عن قبولها او رفضها . لان مجرد التفكير فيها وتسجيلها يعتبر اهتماما خاصا بها حتى لو كان ذلك التسجيل من قبيل التعجب . فعندما يحدثنا اسامة بن منقذ عن الامير الصليبي (كليام دبور) Guillaume de Bwres صاحب طبرية بقوله (اتفق انه رافق الامير معين الدين من عكا الى طبريا وانا معه فحدثنا في الطريق قال : كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجئنا الى (قس كبير) من قسوسنا قلنا (له) تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا . قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق انه اذا حط يده عليه عوفي . فلما رآه قال اعطوني شمعا ، فاحضرنا قليلا من شمع . فلينه وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في

جانب انفه فمات الفارس . فقلنا له قد مات . قال : نعم كان يتعذب فسددت انفه حتى يموت ويستريح)(١٥) . ولا شك ان مثار تعجب اسامة بن منقذ من هذا الطب راجع الى ما كان قد توصل اليه الطب العربي في ذلك الوقت ؛ ومثار سخرية امير طبريا الصليبي راجع الى ما عرفه من تقدم الطب عند العرب وراح يقارنه بما في بلاده من جهل .

فالطبيب العربي كان متمرسا قبل هذه الفترة الزمنية ؛ ويروى ان المقتدر الخليفة العباسي عهد الى الطبيب (ثابت بن قرة) سنة (٣١٩ هـ ـ ٩٣١م) امتحان ٨٠٠ طبيب كانوا موجودين في بغداد وحدها. بينما كان اطباء اوربا يخنقون المريض بالشمع لتخفيف آلامه الجسدية . هذا في الوقت الذي كان الرازي يضع اولى قواعد علم النفس الطبي فيقول : (ينبغي للطبيب ان يوهم المريض دائما بالصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك لان مزاج الجسم تابع لاخلاق النفس) . وكان انتقال الطب الى اوربا عن طريق الحروب الصليبية باعتراف كتابها ، اذ يقول دي بور (ان اطباء العرب كانوا معلمي اوربا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

في هذا الفن حتى القرن السابع عشر)(١٦) . واما المجالات الاجتماعية فقد بقيت قلقة في نفس الصليبي (الاوربي) اذ لم يتوصل ادراكه لمعرفة الاشياء : (ابتداء من نقاط معينة متفق عليها تعتمد في الاقناع على التجربة او العقل اي انها تعتمد على الوقائع التي يتحقق الناس بحواسهم من وجودها)(١٧) . ومثل هذا الضعف في الادراك جعل زوجة الفارس الصليبي (في حكاية الصعيدي) تغضب من الصعيدي لانه لم يتصل بها جنسيا ولم تفهم معنى يقظة ضميره عندما تجلت عنده فكرة الحرام والحلال وهو يتلمس عظمة الخالق في النجوم والبحر والشجر في تلك الليلة التي جاءت عنده . في الوقت الذي كان معجبا بجمالها اشد الاعجاب . وتصف الحكاية ذلك باسلوب رومنسي بديع على لسان بطل الحكاية اذ يقول (فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من ماكل ومشرب وشمع وحلوى وكانت داري مطلة على البحر وكان ذلك في زمن الصيف ففرشت على سطح الدار وجاءت الافرنجية فاكلنا وشربنا وجن الليل فنمنا تحت السماء والقمر يضيء علينا فصرنا

ننظر خيال النجوم في البحر فقلت في نفسي : اما تستحي من الله عز وجل وانت غريب وتحت السماء وعلى بحر وتعصي الله تعالى وتستوجب عذاب النار، اللهم اني اشهدك قد عففت عنها) وهذا الاستشراق الصوفي جوزي عليه الصعيدي بعد ان حرر الملك المنصور (صلاح الدين الايوبي)(١٨)واسر الصليبيين، اذ وجد الافرنجية نفسها بين الاسرى فتملكها لقاء عشرة دنانير له في ذمة السلطان فاسلمت واخبرته ان هذا التوافق دليل على صحة دينه اذ عف عنها بالحرام فوهبها الله له حلالا بعد النصر . وتذكر الحكاية (ابن شداد) القاضي الذي عقد الصعيدي قرانه بواسطته على الافرنجية ، وابن شداد رجل حقيقي(١٩) ووجود اسمه في الحكاية يؤيد التزامن بين الحكاية في الليالي وبين الموروث التاريخي . ومن امثلة هذا التزامن وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامه منها(٢٠) اذ ان ما جاء في حكاية (مريم الزنارية) ابنة ملك الافرنجة من وصول اسطول الى الاسكندرية لخطف مريم الزنارية واعادتها الى ابيها ، دليل اخر على التزامن . وكانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

النتيجة ايضا تعلق (الزنارية) بعلي علاء الدين وتفضيله على الملك والابهة في بلاد الفرنج . وتقص الحكاية مشهدا طريفا عن مقاتلة مريم الزنارية لجيوش ابيها فعندما طلبت مساعدة حبيبها (علي علاء الدين) اعتذر وقال (شعرا ماجنا) اخبرها فيه انه لا يحسن الطعن بالسيف ولكن يحسن الطعن بشيء اخر !.

ولم تعتبر مريم الزنارية شعر حبيبها (المسلم) تخاذلا منه بل زادها تعلقا به فحاربت وحدها وانتصرت متمسكة بقدرها الذي اكد لها عظمة الشرق العربي المتمثل بحبيبها (علي) وهذه الصورة شبيهة بصورة الفرنجية التي رفضت الرجوع الى زوجها الفارس الصليبي وفضلت ان تبقى عند الصعيدي .

والى جانب هذه المشاهد الاجتماعية والانسانية تحدثنا الحكايتان عن الاوضاع الاقتصادية في تلك العهود . فصاحبنا الصعيدي كان يبيع الكتان في صعيد مصر فكسرت بضاعته فحملها الى (عكا) في زمن الهدنة بين الصليبيين و (صلاح الدين الايوبي)

فباعها بارباح طائلة ، ولما انتهت فترة الهدنة انتقل الى دمشق يتاجر بالرقيق . وتحدثنا الحكاية عن طريق البيع المباشر والبيع بالاجل والبيع بالمقايضة. واما (علي علاء الدين) فعندما نفدت دنانيره وافلس راحت جاريته (مريم الزنارية) تصنع له كل يوم منديلا مطرزا فيبيعه بمبلغ كبير فحسنت احواله الاقتصادية .

وقد حدث تزاوج فكري بين الحضارة الاقتصادية العربية وبين الاوربية ، ويحدثنا اسامة ابن منقذ في مذكراته عن استعمال كلمة (برجوازي) وقد سجلها بشكل (برجاسي) صفة للرجل التاجر(٢١) . مما يدل على ان الكلمة انتقلت من الفرنسية الى العربية منذ القرن الثاني عشر الميلادي .

وقد اثر هذا التزاوج تاثيرا مباشرا على اوربا اذ (بلغت حركة الملاحة والتجارة العالمية في القرنين الثاني والثالث عشر من النشاط درجة لم تعرف منذ العهد الروماني ، وكانت البوصلة التي (يظن) ان المسلمين اول من انتفع عمليا باستخدامها ساعدت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

في تسهيل شؤون الملاحة)(٢٢) . وكان الايطاليون اسبق الامم الاوربية في استخدام البوصلة . ونتيجة لهذا التزاوج تاسس نظام مالي بين اوربا والعرب اساسه (الصك) وانتقلت هذه الكلمة الى الانكليزية بصيغة (شيك) وقد ضرب اللاتين دينارا بيزنطيا بكتابة عربية يعتبر من اقدم ما سكه اللاتين من النقود الذهبية .

وللتشابك التجاري والسياسي الذي حدث بين الافرنج والصليبيين خلال تلك الحروب عينت جمهورية جنوى لاول مرة في مدينة (عكا) سنة ١١٨٠ م قناصل (يراسون المحاكم المحلية ويصادقون على توقيعات العقود والوصايا والوثائق والصكوك)(٢٣) وكون مدينة (عكا) مركزا تجاريا تمنح التزامن اهمية جديدة لانها كانت المدينة التي اختارها هذا التاجر القادم من صعيد مصر ليبيع بضائعه فالتقى بالفرنجية التي اصبحت زوجته بعد ذلك . فكان الربط بين الحكاية والحقيقة التاريخية بمثابة تعريفات جوهرية وملائمة للمستوى الفكري السائد عند العامة . فهو حصيلة تجربة حدثت فعلا

استطاعت بمفردها (ان تعطي معرفة حقيقية لاعتمادها على الحس والخيال ، وتحرك النفوس وتحثها على الاخلاص والطاعة فهي اذن نافعة وضرورية ولكنها ليست فلسفية)(٢٤) . بل تعطي التجربة نعيما وحيوية مقبولين حتى لو كانت الادلة او شبه الادلة واهية او مفقودة مما يضطرنا ان نزامن بين التاريخ والحكاية باعتبار ان الدليل الذي لا نعرفه لا يعني انه غير موجود .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

لمحات صوفية

جاء الصليبيون الى الشرق الاسلامي وهم يكادون يجهلون جهلا تاما مبادىء الفلسفة الاسلامية والعوامل المؤثرة فيها والحرية الفكرية المتمثلة بالمساجلات الدينية بين المذاهب الاسلامية على اختلافها وكانت تلك المذاهب على تعدد مناهجها قد تجسدت معالمها الفكرية خلال فترة وجيزة ـ نسبيا ـ من الزمن ، ستة (٢٧ هـ ـ ٦٥٨ م) . ومن خلال هذه المذاهب ظهر المعتزلة والمتكلمون (الفلاسفة) .

ومثلما اختلفت هذه المذاهب في تفسير (اللاهوت) الاسلامي وتحدثوا عن التوحيد والعدل بتعريفات مختلفة تطرقوا ايضا الى الاوضاع الاقتصادية بشكل مسهب وتحدثوا عن الربا والاتكالية والزهد ، ولكنهم جميعا نبذوا فكرة

الرهبنة (فلم يكن الاسلام يفسح صدره للرهبنة المسيحية والتقشف الهندي وكثيرا ما دعا الى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة)(٢٥) وقد استند المسلمون في ذلك الى المصدر الاساسي للدين ، القرآن الكريم ، فكانوا دائما يذكرون الذين ينزعون الى الكسل والرهبنة بمثل هذه الاية (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق، قل هي للذين امنوا في الحياة الدنيا خالصة الى يوم القيامة) . غير ان النفس الانسانية هي نفسها دائما، وان لم تكن عقدها مكشوفة او معروفة كما هي الان بعد اكتشاف علم النفس ، هذه النفس حرفت بتاثير عقدها ـ كثيرا من الرافضين للاقتصاد السائد ونظام بيت المال القائم على الجباية القسرية نحو التصوف حتى اصبح التصوف ظاهرة دينية معترفا بها فقال ابن خلدون في ذلك (الصوفية من العلوم الشرعية الحادثة في الملة) واستفاد الاتجاه الصوفي كثيرا من الانجيل لتبرير سلوكه في ربط العقيدة الالهية بالمعنى الاقتصادي حتى نجد الغزالي يقتبس اكثر من آية انجيلية ذات معنى اقتصادي فيقول (اذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت بيمينك فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن راسك لئلا يعلم بذلك غير ربك) ، وهذا النص هو نفسه في (انجيل لوقا)(٢٦) وما ان حل القرن العاشر الميلادي حتى كان للتصوف شان يذكر بعد اجتيازه الحركات الدينية التي اثارت ضروبا من التامل والنقاش الفكري . فظهر في القرن الثالث عشر (١١٦٥ ــ ١٢٤٠ م) ابن عربي الذي (غادر موطنه في الاندلس فرارا من القيود التي كانت انذاك مفروضة على التفكير الحر)(٢٧) . وفي هذه الفترة الزمنية جاء الى الشرق العربي على راس الحملة الصليبية السادسة لويس ملك فرنسا (١٢٥٠ ــ ١٢٥٤ م) الذي وصفه معاصروه بـ (لويس القديس) فاعاد بناء قيسارية وعكا وصيدا، وعرف بصاحب القلب الطاهر ، ولكن المسلمين كانوا قد استعادوا ثقتهم بانفسهم واصبحت فكرة محاربة الصليبيين حربا مقدسة وجهادا حقيقيا في سبيل الله والدين والوطن فاسترجعوا معظم المستعمرات الصليبية حتى سقطت انطاكية بايديهم

سنة ١٢٦٨ م وكانت من اوائل المستعمرات اللاتينية حيث احتلها الصليبيون خلال الحملة الصليبية الاولى ؛ وهذه الملاحظات التاريخية العامة استفاد منها (الحكواتي) في اخراج حكايات الليالي بشكل يبرز السمات الصوفية فنجد (شواهي ذات الدواهي) تتنكر بزي زاهد صوفي مسلم اسره الصليبيون (وان له خمسة عشر عاما صائما وانقذه المولى من اسر الكفار الذي هو اشق من عذاب النار) وانتصب في المحراب يصلي مما جعل (الملك شركان) يؤمن بصحة اعتقاد هذا الزاهد ولم ينتبه انى انه امراة عجوز متنكرة اختارت الطريق الآمن للتجسس على جيوش المسلمين وقتل ملكهم . وبعد فوات الاوان قال شاعر الليالي يصف حال هذا الصوفي بل هذه الجاسوسة :

صلى وصام لامر كان يطلبه
لما قضى الامر لا صلى ولا صاما

بينما يثبت شاعر الليالي الحالة الايجابية عند الصوفي المسلم ويعتبرها اصيلة وصادقة فيروي على لسانه :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

اما والله لو علم الانـــام
لما خلقوا لما غفلـوا وناموا
فموت ثم بعث ثـم حشـر
وتوبيخ واهـــوال عظـــام
ونحن اذا نهينا او امرنـــا
كاهل الكهف اكثرنا نيـام

وعندما اعول على ما بين الحكاية من لمحـات صوفية وبين الموروث الصوفي في القرن الثالث عشر الميلادي (الحملة الصليبية السادسة) لا اطلب من القارىء ان يعتقـد بقـوة التزامن ولكن ليس من المعقول ان يرفضه بتاتا لان التجربة التاريخية كانت مستمرة عبر القرون وهي دائما تعتمد على الواقع لذلك باستطاعة هذه التجربة ان تعطينا معرفة ؛ ان لم تكن متميزة فهي واضحة . لا سيما اذا كـــان الموضوع متعلقا مباشـــرة بتناقضات لاهوتية بين الاسلام والمسيحيين في ذلك العصـر .

ولاثبات فعالية هذا التزامن يجب ان نعتمد على التحليل العقلي مع ملاحظة سلسلة طويلة مـن البيانات المتشابكة عبر عدة قرون في مسطح جغرافي

واسع يمتد من الشرق العربي حتى الغرب العربي في الاندلس ثم يعود هذا التشابك صليبيا عبر اوربـا عن طريق القسطنطينية او موانىء البحر الابيض المتوسط. ومن هنا تاتي اهمية الحكايات اذ لاتعطي تعريفات لهذه الامور بل تكيف الافكار على مستوى فهم العامة . لذلك كانت مسالة الاستشراق الصوفي عند الصليبيين او كما تسمى (الذوق) التي تجسدت في سلوك (لويس) قائد الحملة الصليبية السادسة مزيج من الايمان والانشداد الى الخرافة . ومن هذا التصوير راى (جورج برناردشو) في كتابه (المسيح ليس مسيحيا) ان (مسائل الذوق هي على اغلب الراي مسالة موضة) مارستها جماعات من العباد او قارئي البخت والعجائب وقد استهوت عقـول القرون الوسيطة واحيانا كانت السبب في تغير تاريخ اوربا كالتفاف الفرنسيين حول (قداسة) جـان دارك (١٤١٢ ــ ١٤٣١ م) وانقاذ بلدهم من الانكليز بعد حروب المائة سنة . ولكن (الذوق) لم يكـن صادقا دائما مثلما لم يكن التاريخ المثير ذا هويـة محددة او مكان معين ، ولكن مما لا شـــك فيه ان

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
AMIR GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحروب الصليبية عملت على تحرير عقول كثير من المفكرين الاوربيين ، فظهر التسامح الديني بعد ان لمسوا بالتجربة اهمية التسامح الاسلامي في اعطاء النوع من التعامل فذكرت كيف اعدم ملك (الفرنجة) بينما كانت الممالك المسيحية (تقر اعدام وفود المسلمين واسراهم ، وقد ظلت هذه الشرعية حتى بعد القرون الوسطى ، وتطرقت الليالي الى هذا النوع من التعامل فذكرت كيف اعدم ملك (الفرنجة) الاسرى الذين اسرهم جنوده في البحر وكان من بينهم (على علاء الدين) ، وكانت المصادفة وحدها التي (اخترعها) (الحكواتي) لاكمال حكايته؛ هي التي انقذته وارسلته الى الدير ليلتقي بحبيبته مريم الزنارية كما يقضي سياق الحكاية . وكنتيجة حتمية لمثل هذا التعامل ظهر في اواخر الحروب الصليبية (سان توماس) (١٢٢٦ ــ ١٢٧٤ م) الذي يعتبر من اكبر فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية فاعتبر الحرب (معصية دينية) مستندا الى قول القديس بولص (لا تصبوا جام انتقامكم يا اخوتي الاعزاء على الاعداء ودعوا الغضب يذهب عنكم)(٢٨) . وهذا الاتجاه الجديد يختلف تماما عن خطبة (البابا) النارية التي

القاها لاعداد الحملة الصليبية الاولى قبل قرن ونصف تقريبا من التزامن الذي وجدنا فيه مدرسة ابن عربي الصوفية ومدرسة (القديس) لويس ملك فرنسا الكنسية وافكار سان توماس فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية .

غير ان التسامح الديني الذي بلغته مجتمعات تلك العصور كان متوقفا على مقدار العناء الذي عاناه المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي في تماسك اجزائه في تلك الحروب(٢٩) . ولكن الفرق بين المجتمعين يتعلق بكون التسامح الديني عند المسلمين اصيلا مستمدا من الوضع الذي اعطاه القرآن الكريم للذميين (اهل الكتاب) بينما كان عند الصليبيين مقتبسا من الاسلام ، لذلك احتاجت افكار (سان توماس) في التسامح الديني الى عدة قرون حتى تنتشر في اوربا . واحراق القسيس (برونو) سنة ١٦٠٠ م في ايطاليا لانه رفض حضور القداس واصر على تدريس الفلسفة؛ دليل على عدم اصالة التسامح الديني عند الغرب وعلى تأخر ادراك المعنى الجليل الذي طالب به سان توماس قبل هذا التاريخ بقرنين ونصف تقريبا .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المسألة الاجتماعية

ليس ما سأقوله ـ هنا ـ هو كل شيء عن المجتمع الاسلامي في تلك الفترة من التاريخ ؛ لان التعقيدات التي كانت تميزه لم تكن وليدة ظروف آنية فحسب بل هي مستمدة ايضا من موروثات اقدم وذات علاقة بالتطور العام ؛ وانها ذات تناقضات جمة كثيرا ما يحلم بها الانسان ؛ على كل المستويات ان يكون (ساحرا او ثائرا او زاهدا) ؛ يحلم ان يكون ساحرا لينقد معاناته الاقتصادية بفركة (خاتم سليمان) فيحضر على الفور المارد ليقول له لبيك انا عبد بين يديك او يكون ثائرا (خارجيا) ليوفق بين الايمان والفكر ومحاربة السلطان وقطع الطريق ؛ او يكون زاهدا ليعوض عن اليأس الاجتماعي بآمال مستقبلية كما فعل الحسين بن منصور الحلاج . فبعد ان حلم في طفولته ان يكون ساحرا استقر على التصوف

ومعرفة الله . ولكن كثيرا من الطامحين راوا ان طريق الفتوة والشطارة هو الاقرب لاثبات وجودهم على سطح الحياة مستفيدين من تأييد السلطان لنظام الفتوة الذي كان بالاساس نظاما يشبه نظام الفروسية في اوربا ؛ فكان (يشترط على الفتى صدق الحديث واداء الامانة واداء الفرائض واجتناب المحارم ونصرة المظلوم وصلة الارحام والوفاء بالعهد والعفو عن الظالم واحتمال الاذى وبذل المعروف)(٢٠) غير ان هذا النظام فشل فشلا ذريعا وانقلب المنتسبون اليه الى قطاع طرق ومثيري فتن . اما الخيرون منهم فاصبحوا تلاميذ للمتصوفة ؛ فشاهد القرن الثاني عشر الميلادي بوادر تنظيم واسع جدا في الحياة الدينية ؛ كنتيجة طبيعية للتفاعل العقلي بين بداية سقوط الحضارة الاسلامية بعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وبين مهاجمة الدولة الاسلامية من قبل التتار من الشرق والصليبيين من الغرب . (فكان مشاهير المعلمين الصوفيين يحيطون انفسهم بجماعة من التلاميذ فيعيشون سويا ؛ وكان هذا التجمع بمثابة جمعيات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

حرة تستوحي تعاليمها من اتصالها الشخصي باحد شيوخ الطرق الصوفية)(٢١) . فاصبح للكرامة الصوفية معنى خاص يستغله المشعوذون ويصدقه المؤمنون او (المتثمون) للطرق الصوفية . وقد حدثنا اسامة بن منقذ في (الاعتبار) عن رجل اسمه (عبدالله المشرف) روى عن نفسه انه كان سجينا ومقيدا بالحديد فراى النبي محمدا في منامه يقول له اخرج يا عبدالله من السجن فقيودك مكسورة فلما استفاق من نومه راى قيده الحديدي فعلا مكسورا وباب السجن مفتوحا والحراس قد اخذتهم غشاوة فلم يروه وهو يغادر السجن . بينما نجد الى جانب هذه الخرافة او (الشعبذة) خبر فقيهين هما (الفندلاوى) و (الحلولي)(٢٣) وقد حاربا (كونراد الثالث) ملك الالمان Conrad في دمشق فقاتلا حتى قتلا . وهكذا يمتزج الحلم بالواقع والشعبذة بالتضحية . فتتكون الحكاية مستمدة قوتها من تلاطم الاحداث التي لا معنى ظاهرا لها فكان الانسان العالي يشعر في اعماق ذاته شعورا غامضا قد يكون مبهما امام الحقائق الكبرى كالدين

والفلسفة والحياة . وقد يكون له معنى كبير اذا سار ذلك الانسان عبر الطرقات وسوح المعارك (فيصطدم بتلال من الجثث بلا رؤوس من الموحدين ومن الصليبيين تتراكم تحت الشمس فلا يقدر ان يدرك اين هو الثمن لهذه التضحيات . وخصوصا عندما يستعرض اخبار فتن تتفجر في الموصل وسامراء وخراسان والاحواز وبغداد وطبرستان ومصر والمغرب . انها حروب بين المسلمين والمسلمين وحروب بين الروم والروم وحروب بين المسلمين والروم(٢٢) . وهذه المجتمعات (العسكرية الكبيرة) قائمة على وحدات اصغر في المدن والقرى والعائلة ، (فلا تجد قطرا ولا بلدا ولا عشيرة ولا عائلة الا في نزاع وتحاسد وتباغض وغصب اموال وجلب ايذاء، دولة مترامية الاطراف تطفح بالحقد والجثث)(٢٤) انها سقوط الحضارة فلم يتمكن الانسان العامي من ان يعطي تفسيرا لمعنى السلب الواقع على ابناء الشعب دون ابناء السلاطين والحكام . فاذا اجتاحت الجيوش الصليبية مدينة او قرية اسرقت اهلها وباعتهم رقيقا واذا استرجعت الجيوش الاسلامية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

تلك المدينة او القرية اصبح الباقون من اهلها حطبا لتلك الحروب. وقد انتقم(الحكواتي) في الليالي من هذه الابعاد فضيع الامير (ضوء المكان) ارضاء للعامة ورماه (في الحكاية) على عنبر الوقود في الحمام ليعثر عليه الوقاد القذر فينقذه ويمن عليه مدى الحياة ؛ وضيع اخته الاميرة (نزهة الزمان) وباعها رقيقا ارضاء للبنت العامية المعرضة للنهب والبيع في سوق الرقيق . وجعل العبد الاسود (الرقيق) يقتل الاميرة (ابريزية) الصليبية لا لكونها بنت ملك الافرنجة وانما ــ بعد اغتصابها ــ حقدا على النظام الاجتماعي الذي قسم الناس سادة وعبيدا وملوكا وعوام . وهكذا تتناول الحكاية مسالة اجتماعية مهمة في نظر التقدم الحضاري والتطور التاريخي هي اقرب الى الفلسفة من تقرير الواقع العام . وتتناول الاختلافات النفسية عند الطبقات الاجتماعية المعترف بها في ذلك العصر ، تلك الطبقات المتمثلة بالعبيد والبدو والجند والمتصوفة والتجار والوقادين والزبالين والسفلة والفتوة وقطاع الطرق والسلاطين والسحرة ؛ وتنقسم هذه الطبقات على نفسها

انقسامات اخرى تتجاذبها حرية الفكر احيانا والاضطهاد العقلي احيانا اخرى . فعلى مدى عدة قرون امتلات السوح الاسلامية ومساجدها بالخوارج والمعتزلة والقرامطة والحشاشين والزنادقة والروافض والاسماعيلية والفلاسفة (المتكلمين) وغير ذلك من (الاصطلاحات الفكرية) التي كانت بمثابة ارهاصات في محاولة اثبات الذات لحقيقة الذات ؛ الفردية مرة والجماعية مرة اخرى ؛ او هي بمثابة اصطلاحات للتعبير عن المحنة العقلية وما تخللها من تفاعل اثر تداخل الموروثات الاقدم ببعضها من اديان وفلسفات وقد امتزجت بالتطلعات السياسية والمصالح الآنية . فبينما يرى المتصوفة أن مقاومة الحكم الفاسد يأتي عن طريق معرفة الله . يرى غيرهم : (لو ان رجلا تصوف اول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير احمق)(٢٥) ومثل هذه التناقضات فجرت المجتمع عن كتل مختلفة حسب الاجناس والمذاهب الدينية او الاهداف السياسية او المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية فظهرت من الطبقات الدنيا من اصحاب الحرف واهل البطالة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية أمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

والمجرمين ، قوة حاقـــدة تمالىء هؤلاء او هؤلاء فيقطعون الطرق باسمهم وينهبون الاسواق ويفتحون الدكاكين ويشعلون الحريـــق ويكبســـون الدور ويكسرون السجون(٢٦) مما جعل البون شاسعا بين الاهداف العليا وبين اصطراع الخبرات الداخليـة التي كان يجب ان تتم عن طريق مفكر غير منتم لكي يتمكن من اعطاء نتائج واضحة ونهائية لمفهوم المجتمع بعد تلاحـم الموروثات وتفاعلها . فعنـدما راودت الشكوك ابا حامد محمد الغزالي (١٠٥٩ – ١١١١ م) تحيز للفلسفة انقاذا لشكوكه من صلاحية التيارات الثقافية في عصره ونبذ المقاييس العقلية ورآها غير صالحة لمعرفة الحق . فركن الى (التجلي) لفهـم الحقائق ، ولم يكن بامكانه ان يتوصل الى غير ذلك والـسلاجقة مهيمنون والعرب مشتتون والصليبيون يقودون الحملة بعد الحملة لهدم القيم الانسانيـة باسم قيم اخرى يقولون عنها انها انسانية . وعندما اراد (الحكواتي) في الف ليلة وليلة ان يعبر عن رفضه لهذا الانزواء الذي لا يطعم ولا يسمن البس عجوز الروم (شواهي) ثياب زهاد المسلمين لتنتقم مـن

المسلمين انفسهم وصور لنا امراء المسلمين خاضعين للجنس فحشر في حكاية عمر النعمـان التي تدور حوادثها حول حرب المسلمين مع الروم ، حشـــر حكاية (عزيز وعزيزة) وحكاية (تاج الملوك والست دنيا) وحكاية قتال (كان ما كان) مع كهرداش وهي حكايات تتحدث عن العشق قبل الحـروب وعـن الجنس قبل الحكمة والقيادة . بل صورت لنـا (الليالي) صلاح الدين الايوبي نفسه (الملك المنصور) انه بعد ان حرر عكا من الصليبيين اشترى بخزينة الدولة جارية فحصل فيها عجز مقداره عشرة دنانير فلم يقدر على تسديد قيمة الجارية فقايض تاجـر الرقيق بجارية من الاسرى لقاء الدنانير العشرة .

وهذه الصورة التي سجلتها الليالي عن صلاح الدين تناقض الصورة التاريخيـة التي قالت انه كان في شغل عن الجنس في تأسيس المدارس والمستشفيات وبناء الجسور وطلب العلم . ولكن التزامن بـين الحكاية والاخيلـة وبين الموروث التاريخـي يمنح الباحث المعاصر قســـطا من الفلسفة الاجتماعية وخصوصا عندما يقارن بين السم الذي قدمتـــه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية أمير غازي للفكر القرآني
AMIR GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شواهي لملك المسلمين وهي في زي الزهاد المسلمين وبين السم الذي قدمته جارية (الوزير عون الدين بن هبيرة)الى ملكشاه السلجوقي وقضت عليه(٢٧). او الخنجر المسموم الذي حاول به الحشاشون اصحاب كامل الصباح اغتيال صلاح الدين الايوبي. وتنبعث النظرة الفلسفية ليس من التركيب الاجتماعي في العصر فحسب بل من كون ذلك التركيب كان يشعر اهله كلا على حده ، ان له الحق الطبيعي على كل شيء ، فيحب الجميع كل شيء ويكرهون كل شيء ، فهم في متاهة عقلية شاسعة وهم قادرون على الدفاع عن الدولة دفاعا مؤكدا . ولكنهم لم يفعلوا الا بقدر انتمائهم الاقتصادي او الفكري فبقدر ما هم انصار للامير عندما يمدهم باسباب الحياة هم اعداؤه عندما تنحسر عنهم او عن اميرهم تلك الاسباب . فالعلائق الاجتماعية اصبحت علائق مصلحة آنية بعد ان كانت في مطلع تاسيس الدولة الاسلامية علائق فكرة حتى الموت. وبالرغم من غموض مثل هذا التعريف فانه يكفي للدلالة على العصبية العقلية التي حدثت في رفض تفحص الافكار المتباينة

التي حدثت عبر قرون ، والتي قلنا عنها قبل قليل انها كانت تمثل معاناة الذات لاثبات وجود الذات فردية او جماعية لان انسان ذلك العصر بالرغم من الثروة الفكرية التي كانت بين يديه عجز عجزا تاما عن اعطاء تفسيرات لوجود التناقض في مجتمعه . فجعل التكتلات الضيقة تنشد انشدادا تاما الى ادراكاتها الخاصة وتطلعاتها الخاصة مما سبب ضمور الفكر العربي عدة قرون ، والتي عرفت بعد ذلك بالعصور المظلمة .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الصورة عند القبيلين

اجتازت اوربا (البربرية) القرن العاشر الميلادي ، واتصالاتها بالشرق الاسلامي تزداد عن طريق تجار البندقية وجنوى وجزر الابيض المتوسط وبلاد الاندلس ، فيزداد من جراء ذلك تكتلها الذي رافق انهيار الدولة الاسلامية وتمزقت اوصالها الى دويلات ينافس بعضها بعضا وتعمل ـ لا اراديا ـ على تحطيم ذاتها وتحطيم مكتسباتها الحضارية وابداعاتها الفكرية ، وكانت محاولة التحطيم قد بدات قبل ذلك التاريخ بدوافع المنازعات المذهبية واحيانا القومية ، والخليفة العباسي في بغداد محدود السلطة ، مشلول الارادة بل لا سلطة لديه ولا ارادة ، تسيره المنازعات الفردية ، والمطامع الدخيلة من بويهية وغزنوية وسلجوقية . وبوادر هذه الحال ترجع الى مطلع العهد العباسي ، عندما

طرحت الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية مسائلها ، وتغلغت الديانات القديمة في المفاهيم الجديدة ، وقد اعتبر (الجاحظ) هذا التغلغل ابتلاء ابتليت به الامة الاسلامية فقال (انهم يتبعون المتناقض من احاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا من اي القرآن ثم يخلون بضعفائنا ويسالون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين (الزنادقة ، ولولاهم ما صار الى اغنيائنا وظرفائنا ومجاننا واحداثنا شيء من كتب المانوية والديصانية والمرقونية)(٢٨) .

صحيح نحن نختلف مع الجاحظ في كون دخول الفلسفات القديمة الى الاسلام سببا جوهريا للانحرافات التي ادت الى سقوط الحضارة ، ولكننا لا نقدر ان نصفح عن المقاصد الخبيثة التي ادخلها بعض اصحاب العقائد القديمة الى الاسلام لتحطيمه من داخله وتخريبه بمعاوله انتقاما لمجدهم الضائع وعقائدهم المهزومة امام التيار الاسلامي الذي جعل تلك العقائد في قائمة الكفر والالحاد .

وعندما حل القرن الحادي عشر الميلادي انتبهت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

اوربا وقد سادها سلام نسبي والف بين الاقطاعيات (فاتيح للاقطاعية ان تنتقل الى عهد من الازدهار المادي انصرف فيه اصحاب القصور والاديرة الى العناية باستثمار الارض وزيادة الثروة والخيرات مجندين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وشق الاراضي وتعبيد الطرق)(٣٩) . غير ان النظرة الحاقدة ضد الشرق الاسلامي بقيت كامنة في نفوس الاوربيين خارج مفهوم الدين المسيحي نفسه . وقد انتبه (سبينوزا) بعد ذلك بزمن الى الازدواجية بين الدين المسيحي وبين سلوك المسيحيين الاوربيين حتى مع انفسهم فقال : (لقد دهشت مرارا من رؤية اناس يفتخرون بايمانهم بالدين المسيحي اي يؤمنون بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع الناس ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون اشد انواع الحقد)(٤٠) . اذن لا نستغرب من الفضائح التي اقترفتها الحملة الصليبية الاولى ضد الدولة البيزنطية وضد مسيحيي فلسطين اذ استولت على اديرتهم وكنائسهم وبيوتهم وطردتهم

مما جعل (بطريق القدس يهرب الى القاهرة ويحتمي بالدولة الفاطمية) .

وقد صور لنا احمد بن زيني المكي في (الفتوحات الاسلامية) صورا تشمئز منها الضمائر عما فعله الصليبيون بمسيحيي الشرق ومسلميهم على حد سواء باسم تحرير بيت المقدس ، فكانت تلك الحروب في اوائل حملاتها تتميز بازمة الضمير الاوربي اذ ان (الفارس) الصليبي مهما كانت تعاليمه عالية وتقاليده جيدة وسلوكه معترفا به الا انها كانت معطلة تماما او مهزومة تجاه المطامع السياسية والاقتصادية . فكان جميع المتعاملين القادمين عبر الدولة البيزنطية من اوربا ، كل منهم يشير الى نفسه ويبحث عن الوضع الملائم لوجوده الشخصي مما جعل الامراء والنبلاء يتنازعون فيما بينهم ويؤسسون اكثر من دولة لاتينية في الرها وانطاكية وجبيل والقدس .

ولم يكن الشرق العربي والاسلامي اقل ازمة ضميرية في ذلك الحين حيث يظل يخسر قضيته باستمرار تحت شعار اطاعة التعليم ، في الوقت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الذي كان اصحاب تلك التعاليم جميعهم زائفين ضالين وكذابين منافقين يعملون ضد المعرفة والذكاء . في سبيل اثبات كيانات رجيمة يحميها الاضطهاد الديني باسم الدين ويسندها الانحراف الطائفي باسم الايمان . ولم تغب هذه الحقيقة عن فكر (الحكواتي) او مخيلته فاخضع المفكرين من معتزلة وغيرهم لمناقشة (جارية)(٤١) من جواري حكايته في الليالي لكي تفضحهم في علومهم وتشهر بهم في جهلهم . ولم يات هذا التزامن اعتباطا من قبل(الحكواتي). وانماارادبه كشف الزيفالسلوكي عند الخاصة بينما العامة تحرقها الحروب والفتن وقودا لهدف نظري غامض لم يتمكن السلطان من ترجمته الى واقع قومي او ديني او انساني تجاه طغيان الجيوش التترية من الشرق والصليبية من الغرب ، ذلك الطغيان الذي سحق التراث القومي والديني والانساني وافرغ الحضارة الاسلامية من مدلولها العلمي وابعادها الفكرية المتفاعلة مع كل الحضارات القديمة .

وكانت الصورة في هذا الموروث التاريخي

واحدة في جميع البلاد الاسلامية والصورة واحدة في جميع البلاد الاوربية . فهناك تراكمات هائلة من الفكر والتسامح الديني ، ولكنها بلا يد قوية تدفع عنها ، اذ ان السلاطين يكيد بعضهم لبعض باسم الفكر والتسامح والدين . وهناك تراكمات هائلة من الجهل والتعصب والغرض ولكن يد (البابا) وتجار الموانىء تعززها وتدفعها بقوة لانقاذ قبر المسيح !

واما الصورة في الحكاية فقد جاءت واحدة فهي لا تخرج عن الدسائس والخيانات بين الوزراء والملوك وعن كيد الاخوة الامراء لبعضهم وفي الجانب الاجتماعي لا تخرج عن تقديس الجهل والخرافة وقتل الاسرى او تقديمهم خدما للاديرة . والمراة عند القبيلين تضيع وتسترق او تؤسر وتسترق او تباع وتسترق . وبين الضياع والاسترقاق ينتقم العبيد او البدو من ساداتهم ابشع انتقام . ولم يكن العقل قانونا للحياة ولا الضمير حافزا للتقدم الانساني فتلك الاحداث وغيرها من الموروثات المتزامنة كانت بمثابة تعريف : ان الظاهرة الحياتية الانسانية هي اعم

This file was downloaded from QuranicThought.com

من البيئة الخاصة بكثير وليس بامكانها السيطرة على الطبيعة المطلقة سيطرة فعالة لتغير النوع ، ولكنها بكل تاكيد تقدر على الاستفادة من الطبيعة بمدلولها الاعم وذلك بقدر ما تتعلق تلك الفائدة بالمصالح الحياتية وما يكتنفها من ازدواجيات ، وتكون التجربة دائما هي الرائد الاصيل لذلك(٤٢) وجاءت نتائج التجربة الصليبية متاخرة ؛ جاءت بعد قرنين من بدايتها فادرك الغرب ان عليه الايحطم كل شيء بل عليه ان ينهل من مناهل المعرفة عند العرب والمسلمين . وادرك العرب والمسلمون ان انقاذ انفسهم وتربتهم وتراثهم لا يمكن ان يتم بالتفكك الاناني ؛ فظهر صلاح الدين الايوبي ليصنع معركة حطين ، وظهرت الحكاية لتمجد انقاذ عكا وتدين ملك الفرنجة ، وظهرت الاخيلة لتمجد الاميرات الصليبيات اللاتي انحزن الى الجيوش الاسلامية ، وتدين العبيد والبدو الذين تمردوا على الجيوش الاسلامية ؛ وهذا ما يجعلنا نؤكد ان التجارب قد القت ضوءا ما على الاوضاع السائدة. فميزت الحكاية بين البطل وبين الوغد بدقة اكبر

مما فعل الموروث بالبطل وبالوغد ، وسلكت الحكاية مسلكا مبسطا من غير تعقيد فجعلت القارىء يضطر الى اعتناق افكار حاسمة في فهم الصورة عند كل قبيل من القبيلين ، الاسلامي والصليبي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفة الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الوجه المشـــرق

لحد الان والصورة مبهمة مكتومة الاضـاءة وهذا ليـس معناه انعدام وجود وجـــه مشرق في الموروث التاريخي في تلك الفترة الزمنيـة . اذ ان جهود العرب كانت واسعة جدا في العلوم وكـــان القسط الذي قدمته الحضارة العربية والاسلامية عظيما ، ففي الوقت الذي كان العقل الاوربي خاضعا خضوعا وثنيا للاساطير والتوراة كان ابن حـــزم (سنة ١٠٦٤ م) يهاجم الخرافة بعنف « حتى انه استعمل بعض الالفاظ النابية » في ذلك ، وينقل لنا عمر فروخ في كتابه « عبقرية العرب » عن كتـاب (الملل والنحل) لابن حزم قوله « زعم القـوم ان الفلك والنجوم تعقل وانها ترى وتسمع ، هـــذه دعوى بلا برهان ، وصحة الحكم ان النجوم لا تعقل اصلا وان حركتها ابدا رتيبة واحدة لا تتبدل » . وفي الوقت الذي كان اهل العهد القديم يقولون ان

انهار النيل وجيحان ودجلة والفرات تخرج من الجنة وتسقي المعمورة فند ابن حزم الاندلسي هذه الخرافة وذكر (ان لهذه الانهار منابع معروفة في ارضنا هذه على ما هو معروف في كتب الجغرافية)(٢)(٤) .

وسارت العلوم عند العرب في هذا المسـار العلمي الخاضع للتجربة والمشاهدة والبرهـــان المنطقي والتحليل العقلي . واما الفلسفة فقد بلغ العرب والمسلمون فيها شوطا كبيرا ، فصححـــوا اخطاء الفلاسفة اليونان وابدوا رايهم في العـــدل والتوحيد وفي نظام الكون ، وقالوا ان لكل جســم طبيعي قوانين ثابتة تسيره ، وللاجسام طبائع وافعالا مخصوصة بها وناقشوا ارسطو في نظرية (الحد) اذ ان الفلاسفة اليونان حدوا الجسم بانه مركب من (الصورة والجوهر) بينما ابو الهذيل (المعتزلي) قال ان (الجسم ماله يمين وشمال وظهر وبطن واعلى واسفل) ويقول غيره « الجسم هو الطويل العريض العميق»وتحدثوا عن كون«الانسان جزء من اجزاء الكون لكن طبيعته تختلف عن طبيعة الاجسام » . وقالوا في المعرفة انها نوعان « حســية وعقليـة »

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وتحدث اخوان الصفا في شتى العلوم اذ قال عنهم ابو حيان التوحيدي « هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع في قول النظم والنثر مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة وحفظ ايام الناس وتصرف في كل شيء » ودافع « المتكلمون » عن العقيدة وطرح الفارابي نظرية (المعاني الكلية) للمناقشة وهي تتلخص بكون العقل الانساني هو الذي يستخرج الكل من الجزئيات في التجريد ، وقد ثار حول هذه النظرية جدل كثير في اوربا حتى نهاية العصور الوسطى في اوربا .

ولم يكن الطب اقل شانا من علوم الكلام والفلسفة ، فيذكر لنا ابن القفطي (ت سنة١٢٤٨م) في كتابه (اخبار العلماء) سيرة اربعمائة واربعة عشر طبيبا وحكيما . ويقول المستشرق (ماكس مايرهوف) ان كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (ت سنة ١٢٧٠م) لا يقل اهميةعن كتاب ابن القفطي وقد تصدى فيه لسيرة اكثر من ستمائة طبيب)(٤٤) . وقد استمد ابن ابي اصيبعة من مراجع (ذكرها) وهي الان مفقودة بالاضافة الى

معرفته الجيدة في طب العيون فهو اشهر الكحالين. ويسمي (مايرهوف) القرن الحادي عشر الميلادي العصر الذهبي حيث « كان اطباء العالم الاسلامي وعلماؤهم يمارسون مهنتهم على اسس مكينة . » ومعرفة (ابن البيطار) بفوائد الاعشاب في العلاج تؤيد هذا الراي وتجعل الطب في قمة العلوم القائمة على التجربة والملاحظة مما جعل (ابن النفيس) يكتشف الدورة الدموية الصغرى في وقت مبكر بالنسبة لتطور علم التشريح .

والى جانب هذه العلوم كانت الجغرافية والخططوالاسفار تضع الدنياامام اعين الدارسين. فخريطة الادريسي غنية عن التعريف بينما ذكر لنا « المقريزي » ان احد السياح دخل مكتبة الفاطميين في القاهرة فراى فيها (مقطعا) من الحرير الازرق غريب الصفة فيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها وجميع المواطن مبينة للناظر(٤٥) . وقد حدثنا التاريخ عن عناية الدولة الفاطمية بالكتب وتخزينها وتبويبها اذ كان بمكتبة (العزيز) الفاطمي اربعون خزانة للكتب من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

جملتها خزانة واحدة فيها ثمانية عشر الف كتاب من علوم الفلسفة والطب والالهيات . ومثيلات هذه المكتبة التي وصلتنا اخبارها كانت موجودة في معظم قصور الحكام والامراء ومباحة لكل من يود منها الفائدة ، مما يعطينا فكرة واضحة عن حريةالبحث والاطلاع في شتى العلوم حيث يسمح لكل الطالبين والعارفين والباحثين ارتيادها . فحكوا (ان علي بن يحيى المنجم كان ممن جالس الخلفاء وكانت له خزانة كتب عظيمة في (ضيعته) وسماها خزانة الحكمة وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون ، والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى)(٤٦) . لذلك كانت دهشة المستشرق الفرنسي (البارون كازا دى فو) في محلها عندما لفتت تفكيره هذه الظاهرة العلمية قياسا الى التعصب الديني في اوربا ثم قال (اننا نجد عند العرب تلك العبقرية العظيمة وموهبة الابتكار العلمي والنشاط الفكري المبدع) وقال ايضا (علوم العرب انما هي تكملة لعلوم الاغريق التي حفظوها وصانوها من الضياع والتلف وتقدموا

بها وانموها واضافوا اليها واخرجوها بشكلها النهائي) .

وما يقال عن الفلسفة والطب والجغرافية وصيانة الكتب في الخزائن العامة والخاصة يقال عن الحساب والجبر والرياضيات والفلك والصيدلة والحيوان . وكتب التراث ودراسات المستشرقين تزخر باكتشافات العرب في ذلك .

وبعد هذا العرض السريع للوجه المشرق في تلك الفترة الزمنية علينا ان ننتبه الى ان العرب حينما ارتفعوا بالحياة العقلية كان العالم الاوربي يخضع للجهل العام ويكافح شعبه من اجل الانعتاق من شباكالبربريةواغلالها الاجتماعية والفكرية(٤٧). ويعمل بجهد مضنللتخلص منظام الاقطاع وهيمنة النبلاء الذين سخروا الارض واهلها لملذاتهم وحماقاتهم واعتبروا الانسان جزءا من الارضيباع ويشترى بالتبعية الاقطاعية ، هذا بالرغم من كثرة الاقطاعيات وصغر مساحاتها في بعض المناطقالاوربية حتى قيل عن الاقطاعيات البولونية « اذا جلس كلب النبيل في اقطاعيته امتد ذنبه الى اقطاعية

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

جاره » . وكان البابوات يباركون تلك الفوضى وذلك البؤس مما جعل بعض اساقفة سكسونيا يهيبون بالشعب الالماني باسم الايمان «ان ثمة عملا ينتظرهم (لانقاذ) الشعب السلافي من الوثنية والهرطقة ». وقد تبنى هذه الدعوة (الاسقف اتو) اسقف مدينة (بامبرج) فطفق الالمان في زحفهم مقترفين اكبر الفظائع باسم السيد المسيح ووقع كثير من المذابح والاغتيالات والمقاتل والمصادرات والاستعباد والاسترقاق. ولكن ثورات السلافيين بقيت تتكرر ضد الزاحفين باسم الايمان ما بين سنة (٩٨٣ — ١٠٦٦ م) .وكانت شريعة الغاب هي السائدة في التعامل اليومي . وكانت الكنيسة اكثر ما تخشى جدل الفلاسفة ومناقشات المتعلمين ، وكانت ترتعد خيفة من صوت العلم القادم من الشرق ، ومهما كان وضع المجتمع الاوربي فان سلطة الاديرة هي الاقوى وكان النبلاء ينافقون مع هذه السلطة حفظا لمراكزهم بالرغم من كونهم ابعد الناس ايمانا بها . ومثلما اوصدت الاديرة ابوابها ضد العلوم الحديثة فتحتها للشعبذة وصكوك الغفران . وبعد عهد طويل تمكن

(الاستاذ البريتوني) لاول مرة ان يجعل من باريس سنة ١١٤٢م مركزا للتفكير الحر والبحث العلمي متحديا سلطة الاديرة ونزوات النبلاء . ولكن محاكم التفتيش القذرة استمرت تلاحق الاحرار والمفكرين وتحرقهم لانهم هراطقة او ملحدون او سحرة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . وتضحية جان دارك بطلة فرنسا القومية ليست بعيدة عن سمع التاريخ وبصره . ونفي دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١) ومطاردته ليست غائبة عن الاذهان . وقد قال مؤرخو ذلك الشاعر (ان المنفى هو الذي انقذه من مخالب فلورنسه)(٤٨) وحماقاتها في مطاردة المفكرين .

وهذه النقائض بين الشرق الاسلامي والغرب الصليبي تناولها الحكاية في (الليالي) بتصوير اهمية العلم وتقدير اهله عند العرب كما تناولته الحكاية الغربية بتجميع قطاع الطرق واللصوص بقيادة (روبن هود) لنصرة الملك الطيب ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا بعد عودته من غزوته الصليبية فوجد ان اخاه قد استغل غيابه في الحرب «المقدسة» واستولى على العرش . والحكاية تقارن بشكل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

مواسط بين الملكين اذ ان الملك العربي يقبل العلم ويوافق على ان يطببه شيخ زاهد بينما تشير الحكاية نفسها في (الليالي) الى (ملك الفرنج) الذي كان يتقرب الى الاديرة باعدام الاسرى المسلمين في حكاية (مريم الزنارية) . ويؤكد اسامة بن منقذ ان الطب عند (الفرنجة) يضع الشمع في انف المريض لانقاذه من الم المرض . ومثل هذا التزامن يعبر بدقة عن البون الشاسع بين الانتصار العلمي من خلال السلوك والانتصار الفوضوي من خلال الرغبة والخرافة فتكون الصراعات هدما حضاريا قبل ان تكون بناء. وهذا ما حدث فعلا خلال الحملات الصليبية الاولى. وبعد فترة ، انتبه الغرب الى انه يوشك على محو حضارة فراى ان يسلبها . فذلك خير له وابقى وقد حدث ذلك فعلا .

الخسائر والارباح

اذهلت الحضارة العربية والاسلامية مفكري الغرب الصليبيين اذ انهم جاءوا ليحرروا قبر المسيح من (الهمج المسلمين !) فاكتشفوا انهم بحاجة الى تحرير عقولهم من الخرافة والجهل ، فراح (مبدا مشاركة رجال الدين للملائكة في الرضا الابدي) ينهار « وبدا يشعر الناس ان ما جاء على السنة البابوات من مفارقات ليست دائما قضايا مسلما بها » فاصبح ارسطو — بفضل المسلمين — معروفا لاول مرة ولم يكن قبل الحروب الصليبية مقبولا ان « يقرع الفيلسوف ابواب العقائد الدينية او يتناولها بالنقد العقلي المطلق » من غير تقيد بالايمان . واطلع الغرب على علوم العرب ونقلها وبدات الحركة الجامعية تاخذ في النمو من حيث الاهمية في الدوائر الرسمية . فضلا عن الاتساع في التعليم فصار

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

(البابا) او الامبراطور هو الذي يمنح اجازة (بحق الرواية) البكلوريا(٥٠) . فعندما صارت مؤلفات اليونان والعرب في متناول الدراسات الجامعية في باريس (سنة ١١٤٢ م) وانتقلت الى جامعة اوكسفورد في انكلترا (سنة ١١٦٨ م) ومنها الى كمبرج (سنة ١٣٠٩ م)(٥١) . وكانت الارقام العربية من اهم ما اخذه الغرب فطغت على الارقام اللاتينية لسهولة استعمالها ودقة الحسابات فيها . وقد تطور شعور الصليبيين بالخيبة في محافظتهم على(الارض) وبيت المقدس الى طموح علمي عندما عادوا الى بلادهم . ولكن هذا لم يمنع الحملة الصليبية الرابعة بعد خيبتها من تحويل طموحها السياسي الى هدم الامبراطورية البيزنطية ونهب القسطنطينية سنة (١٢٠٤ م) وتمزيق اكبر دولة واغناها في العصور الوسطى .

ومثلما اثرت الحروب الصليبية اقتصاديا على اوربا بدت الحياة الفكرية اكبر تاثيرا واكثر عمقا واستعدادا لاستقبال عهد النهضة الكبرى التي فصلت بين العصور الحديثة والعصور الوسيطة .

فما ان حل القرن الرابع عشر الميلادي حتى هبت رياح الاصلاح الديني فظهر (جون ويكليف) سنة (١٣٢٨ ــ ١٣٨٤ م) الذي نادى « بان السيد المسيح هو الوحيد الذي له سلطان على الانسان وان هناك كثيرا من تعاليم الكنيسة فاسد فارتعدت الكنيسة في روما من نشاطه وبلغ الحقد ان نبشت قبره بعد موته واحرقت عظامه »(٥٢) . ولكن (جون هس) (١٣٦٩ ــ ١٤١٥ م) لقي مصرعه على يد الكنيسة بماساة رهيبة بعد ان اعلن تمسكه بمبادىء (ويكليف) وكان لوثر (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦ م) في خاتمة مطاف دعاة الاصلاح الديني فمزق سلطة البابا واعلن سلطة العقل وحرية الراي . فانتصر له الفقراء والمعدمون وجروا وراءهم النبلاء ففاز في النهاية بمساندة الشعب . واختراع الطباعة(٥٣) وانتصار لوثر جعل مفكري الكنيسة ان يعملوا على اخضاع الكنيسة لنوع من الاشراف المنظم والرقابة الدائمة بعد ان كانت سلطة البابا هي العليا . ولكن ما شهده هذا القرن من تقليص سلطة البابا كان يزامنه سقوط الدولةالعربية في الاندلس سنة ١٤٩٢م اي في السنة

This file was downloaded from QuranicThought.com

نفسها التي اكتشفت فيها امريكا . ويقول (فشر) (ان التوافق الزمني بين عصر الجهود المسيحيةضد المسلمين في اسبانيا وعصر الحروب الصليبية في الشرق لم يكن محض الصدفة او وليدها)(٥٤)اذان احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ م لا يبعد كثيرا عن الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٧ م وفشل الحروب الصليبية في خاتمتها سنة ١٢٩١م لا يبعد كثيرا عن الاستيلاء على مدينة (مرسيه) عبر جبل طارق سنة ١٢٦٦ م . اما التطور الفكري فقد سار بخطين متعاكستين تماما ، اذ انحسرت مقوماته في الشرق الاسلامي وتلاحقت الاحداث من ضربات التتار الموجعة فلم تترك فرصة لالتقاط الانفاس وبدات النهضة الاوربية تتسع لتشمل كل الميادين ؛ فبينما كان (فرديك الكبير) ملك المانيا يفاخر ملوك اوربا بكونه يعرف اللغة العربية قراءة وكتابة كان ادباء العرب ينظمون الاحاجي والحزازير في زوايا التكايا وتحت اساطين المساجد المهملة . مما جعل السمات الانسانية عند العربي تتكفيء دهورا طويلة وتدور مقوماتها في حلقات مفرغة تحت سلطان كمية ضخمة

من السلاطين الجهلة والمماليك والمرتزقة . وقراءة عرضية لمقدمة (عجائب الاثار في التراجم والاخبار) لمؤلفه الشيخ عبدالرحمن الجبرتي ، توضح محنة الفكر اذ ورد في ديباجتها (اعلم ان سبب هلاك الملوك اطراح ذوي الفضائل واصطناع ذوي الرذائل والاستخفاف بعظمةالناصحوالاعتزاز بتزكيةالمادح) وهذه الحقائق التي طفت على المجتمعات العربية في العصور المظلمة ادت الى تحركات مرضية بحيث اصبح الفرد يتخيل ان بامكانه انجاز عمل صعب ولم يكن ذلك العمل غير محاولة لاشباع النزعات المصلحية .. مما جعل الشخصية العربية تنمو بعد الحروب الصليبية على فقاقيع وهمية ، بينما كانت الشخصية الغربية تنمو على دعائم علمية مستمدة من الفردوس العربي المفقود تراثا وعلما وسلوكا وكتابا امتلات به مكتبات الاديرة والجامعات الغربية . ورفض العربي في العصور المظلمة الاعتراف بالنكوص والتقهقر معتبرا تراثه الضائع يكفي لميزته التاريخية ويعزز هذا الغرور القاتل (الدراويش) واصحاب (الطرق) والدولة العثمانية القائمة على نظام المرتزقة

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

(الانكشارية) ذلك النظام الفريد من نوعه في التاريخ الذي لم يكن نظام سلطة المماليك افضل منه في استمرارية الدولة . واصبح الطوق في المشرق العربي كما كان في الغرب قبل الحروب الصليبية قويا في محاصرة الحرية الشخصية ومحاولة التخلص من المعوقات الحضارية والانطلاق من الحصار . وكانما (موراى) العالم النفساني قد اشتق قائمته في الحاجات الانسانية للسلوك من الاوضاع العامة التي كانت سائدة(ده) في الشرق لا في الغرب في العصور الحديثة . فقرر ان العلاقات المتبادلة « لا تعمل كل منها في عزلة عن الاخرى وان لطبيعة التفاعل الاجتماعي او التاثير المتبادل اهمية فائقة » ؛ وهذا ما حدث فعلا بعد الانحسار الحضاري السريع فاصبح التفاعل يتم بين الرغبة وبين الامكانات لا بين المعرفة وتطوير الامكانات . غير ان (الحكواتي) في الليالي كان ابعد نظرا من الموروث فختم حكايته بتجميع ابطال الاحداث بغض النظر عن التفاوت الزمني في تلك الاحداث وعلاقة عمر البطل بتاريخ الحادث ؛ وعاقب من عاقب وجازى من جازى وتنبا

بالخير ، ولكن نبوءته جاءت متاخرة ، امتدت اكثر من سبعة قرون فيما لو اعتبرنا التزامن بين الموروث والحكاية لم يتجاوز القرن الثالث عشر الميلادي .

وبعد هذا الايجاز في التحليل وربط التاريخ بالحكاية هل بمقدور مفكرينا المعاصرين ان يلتمسوا التزامن مفصلا في كل ظاهرة على حدة ؟ ويعملوا على دفع النهضة العربية الحديثة دفعا بموجب تخطيط علمي قائم على الروابط العلمية الصحيحة وتطويرها الى الامام ؟ اظنهم قادرين ولا اضن عليهم بالتفاؤل .

بغداد : في ٢٦-١-١٩٧٨

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقف الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

هوامش ومصادر

(١) التزامن ـ ترجمة كلمة Synchronicity وتعني تطابق الاحداث التي تقع معا في الوقت نفسه وقد ترجمها بهذا المعنى مترجمو كتاب نظريات الشخصية ، الدكتور فرج احمد فرج وقدري محمد حفني ولطفي محمد فطيم .

(٢) ك . هول و ج . لندزي : نظريات الشخصية ، ص ١١٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٤) يرى الدكتور جواد علي ان التاريخ ليس علما ، وقد طرح هذا الراي في ندوة مشوافية (تلفزنونية) قابله فيها الاستاذ حسن العلوي .

(٥) حنا الفاخوري وخليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ٥٠٤/٢ .

(٦) اعتمدت في هذا الجرد على الطبعة الرابعة الكاثوليكية . واما في طبعة بولاق فتزيد الليالي على هذا الرقم .

(٧) نظريات الشخصية ص ٦٦٣ انظر النظرية الاجتماعية الحيوية لمورفي .

(٨) تاريخ الفلسفة العربية ٣٠٢/١ .

(٩) ول ديورانت : مباهج الفلسفة ١٠٧/١ .

(١٠) فليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٢٣/٢ .

(١١) المصدر السابق ٢٣٩/٢ .

(١٢) د . حسن حنفي مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة

لسبينوزا ص ١٥ .

(١٣) اسامة بن منقذ من امراء آل منقذ اصحاب قلعة شيزر وكان من اصدقاء صلاح الدين الايوبي وضباطه وشاهد عيان لكثير من معاركه وهو مؤلف كتاب (الاعتبار) .

(١٤) الاعتبار ، ص ١٣٥ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(١٦) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٨٨ .

(١٧) سبينوزا ، ص ٢١٤ .

(١٨) حرر صلاح الدين الايوبي مدينة عكا سنة ١١٨٩ م . انظر الكامل في التاريخ ٢١٠/٩ وما بعدها طبعة دار الكتاب العربي .

(١٩) ابن الاثير ج ٩ احداث سنة ٥٧٠ للهجرة .

(٢١) الاعتبار ، ص ١٤٠ .

(٢٢) فليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٥٦/٢ .

(٢٣) المصدر السابق ٢٥٦/٢ .

(٢٤) انظر الهامش (٢٢) ص ٢١٥ من كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة .

(٢٥) الدكتور ابراهيم مدكور : في الفلسفة الاسلامية ص ٦٦.

(٢٦) حنا الفاخوري وخليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ٢٩٩/١ .

(٢٧) فليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٩١/٢ .

(٢٨) الدكتور احمد سويلم العمري : اصول العلاقات السياسية الدولية ، ص ٤٨ .

(٢٩) برناردشو : جان دارك ، ص ٢١٨ ترجمة احمد زكي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

(٣٠) سعيد الديوجي : الفتوة في الاسلام ، ص ٥٤ .

(٣١) وينولد الن نيكسون : تراث الاسلام ١٢٧/١ .

(٣٢) انظر ترجمته في ياقوت (معجم الادباء) ٢١٦/٢ .

(٣٣) ميشال فريد غريب : الحلاج او وضوء الدم ص ٥٤ ـ ٦٣ وقد اقتبسنا بعض فقراته بتصرف . والظر الفتوحات الاسلامية لاحمد بن زيني المكي احداث سنة ٦٠٠ للهجرة وما بعدها .

(٣٤) المصدر السابق .

(٣٥) ينسب هذا القول الى الامام الشافعي .

(٣٦) الدكتور صلاح الدين المنجد : الحركات التقدمية في العراق حتى غزو التتار ، انظر الفصل الاول .

(٣٧) ابن الاثير : ٧١/٩ انظر احداث سنة ٥٥٥ للهجرة .

(٣٨) رسائل الجاحظ : ١٧٤/٢ على هامش الكامل للمبرد .

(٣٩) منير بعلبكي : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧ .

(٤٠) سبنوزا ، ص ١١٥ .

(٤١) انظر حكاية « تودد الجارية » في الف ليلة وليلة .

(٤٢) فلان الفلاني : مجلة الف باء العدد ٤٨٧ ، ص ٢٥ .

(٤٣) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ٨٩ ـ ٩١ .

(٤٤) ماكس مايرهون : تراث الاسلام ٢٠٨/٢ طبعة نادي ابن سينا في الموصل .

(٤٥) خطط المقريزي ٤٠٨/١ .

(٤٦) احمد امين : ظهر الاسلام ٢٢١/٢ .

(٤٧) تراث الاسلام ٢٣٠/٢ « المصدر السابق » .

(٤٨) هـ . ا . ل فشر : تاريخ اوربا في العصور الوسطى ١٥٢/١ .

(٤٩) المصدر السابق ٢٧٠/٢ .

(٥٠) نشرت جريدة التايمس اللندية في ملحقها للتعليم العالي في ٢ـ٥ـ١٩٧٥ للباحثين « ر . ى . عبيد و م . ل . بونك بحثا مطولا جاء فيه ان المسلمين هم مكتشفو الجامعة ونظامها الاكاديمي وان شهادة (البكالوريس) اصطلاح متطور عن اجازة (بحق الرواية) التي كان يمنحها الشيوخ لتلامذتهم » .

(٥١) تاريخ اوربا في العصور الوسطى ٢١٣/١ .

(٥٢) انظر مقدمة عجاج نويهض وشفيق الحوت لكتاب « نفاق اليهود » لمؤلفه مارتن لوثر .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٥٤) تاريخ اوربا في العصور الوسطى ٢٨٩/٢ .

(٥٥) انظر تعريفات « موراى » في كتاب نظريات الشخصية ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥ .

وقف أمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT
This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

المحتويات

١ ـ التزامن ٥
٢ ـ الغزو الصليبي ١٣
٣ ـ العلائق بين التاريخ والحكايات ٢١
٤ ـ لمحات صوفية ٣٠
٥ ـ المسألة الاجتماعية ٣٨
٦ ـ الصورة عند القيلين ٤٨
٧ ـ الوجه المشرق ٥٦
٨ ـ الخسائر والأرباح ٦٥
٩ ـ هوامش ومصادر ٧٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
١٠٦٤ لسنة ١٩٨٠

دار الحرية للطباعة بغداد ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٨٠

This file was downloaded from QuranicThought.com